

الأدب العربي والصراع ضد الصهيونية والامبريالية العالمية

قبل
حمديك

ونستطيع ان نمضي ما وسعنا ألمضي مع بقية الآراء المتشعبة في وظيفة الادب وغايته ، نرى انفسنا آخر الامر غائدين الى الحقيقة التي لا مرأى فيها ، وهي وجوب اتجاه الادب بكل قوته الى خوض معركة المصير ، أي جانب القوى الاخرى - ضد الصهيونية والامبريالية العالمية .

وسوف يقال - كما قيل دائما - « ان ذلك توجيهه للادب ينافي طلاقته ، او تقييد يوق حرته ، او الزام يعارض طبيعته » .. غير ان هذا انقول ومثله مما يلقي بحسنية او بسوء قصد قد فرغ لجادون من تفنيده وأرد عليه ، ولم يعد له محل في أي نقاش علمي أو ادبي جاد . فالحرية المفروضة للادب لا يعوقها القول بقيمة هذا الادب العظمى وقوته الفعالة ، ووجوب اتجاه هذه القيمة وتلك القوة الى اسعاد الانسان وتحقيق حرته وكرامته ورفاهيته .. على أن أسأله ليس فيها أي أزام او قهر او تسخير ، وانما فيها ترشيد فقط لما ينبغي أن يكون عليه الأدب في تلك المرحلة - على الأقل - من التزام تلقائي يحس به كل اديب نحو وطنه وقومه ، بحيث يجند اديبه باختياره للوقوف به في صف المغتالين ضد الصهيونية والامبريالية ..

وسوف يقال ايضا - كما قيل كثيرا - « ان ذلك يضعف الادب ، ويجعل فيه كتابات اعلامية ممجوجة ، او في أقل تقدير يهبط به عن المستوى الفني العالمي » .. وهذا القول - هو الآخر - مردود بان الحديث عن الادب الحق الذي استوعى كل القيم الادبية المطلوبة ، مع اتجاهه موضوعا ومضمونا الى هدف النضال ضد الصهيونية والامبريالية ، ان اي كلام هابط فنيا لا يدخل في حديثنا ، ولا يشفع له حتى نيته او مجرد معالجته لموضوع نضالي ضد عدونا الضاري .. بل لا بد ان يكون العمل ادبا قبل كل شيء ، ثم يقال عنه بعد ذلك انه ضد العدو وملتزم بقضية العروبة ، او انه يضرب في واد آخر أو يهتم بقضية اخرى ..

وهكذا نرى ان الادب الحق ، والادب الحر ، والادب الصادق ، والادب المعبر ، والادب الناقد ، والادب المفسر ، والادب المصالح ، انما هو الادب الذي يجند نفسه باختياره ليقف في صف المناضلين ضد اعداء اتعروبة من صهيونية وامبريالية .. وان اي ادب يشغل نفسه بشؤون اخرى - ونحن في هذه المرحلة من تاريخنا - انما هو ادب أقل ما يوصف به انه ادب مختلف ، او منفصل عن الواقع ، او

مهما كان الخلاف على وظيفة الادب ، فلا شك في انه قوة فعالة لها تأثيرها على الفرد والمجتمع ، ومن هنا لا مجال للجدل في وجوب اتجاه هذه القوة الفعالة الى التأثير على كل فرد وعلى كل مجتمع لصالح الوجود العربي والمصير العربي والشعب العربي الذي يعبر عنه هذا الادب .. وحتى لو لجنا الى الاخذ بأي رأي من تلك الآراء التي تتحدث في وظيفة الادب او غايته ، فسوف نرى انفسنا آخر الامر غائدين الى هذا المبدأ الذي لا شك فيه ، وهو وجوب اتجاه الادب بكل طاقته الى خدمة القضية العربية الاساسية وهي قضية مواجهة الصهيونية والامبريالية العالمية ، في مشاركة جادة لكل القوى المناضلة الشريفة ، التي تتصدى لهذا الخطر المحدق .. فاذا قلنا « ان وظيفة الادب التعبير عن مشاعر الانسان ازاء الحياة » فنحن واعدون ان مشاعر الانسان العربي مثقلة دائما بهذا التهديد الذي يواجهها في ضراوة من قبل الصهيونية والامبريالية ، وانصدق انقضي يقتضي ان يكون تعبير ادب العربي عن هذا التهديد هو التعبير الاساسي الذي يتقدم كل شيء سواه .. واذا قلنا « ان وظيفة الادب نقد الحياة » فنحن واعدون ان الحياة العربية مشحونة باتهام الصهيونية وجرائم الامبريالية ، حتى ما لم يظهر فيه اثر تلك الآثام والجرائم ، فانه راجع في حقيقة الامر الى ما جره علينا هذا الخطر المحدق الذي انتزع اجزاء عزيزة من الارض العربية ، وراح يستمسك لانتزاع اجزاء اخرى ، واستطاع بمعاونة الامبريالية العالمية ان يزيح بعض الجولات وان يستنزف الكثير من طاقات الامة العربية التي كان من الممكن ان توجه الى التقدم والرخاء . وهكذا يتحتم على من يرى « الادب نقدا للحياة » ان يكون هذا الخطر الصهيوني الامبريالي مجاله الاول الذي ينتقد آثامه ويحسم جرائمه ، ويصير بما تركته اياديه الملوثة على ارضنا وواقنا وتاريخنا من جراح ! ولئن قلنا « ان وظيفة الادب تحقيق التوافق الذاتي للانسان » فلا مرأى في ان تحقيق هذا التوافق للنفس العربية لا يتم الا بمعالجة اداء الحقيقي الذي تسلسل الى تلك النفس في صورة فلق حيننا ، وفي شكل احساس بالهوان والهزيمة حيننا آخر ، ثم في هيئة حزن قاتل مرة ، وفي قناع استخفاف ساذج مرة اخرى ، حتى كانت النتيجة هي بلبلة هذه النفس ، وتمزقها او عدم توافقها ان صح هذا التعبير .. ومن هنا كان على من يرى « الادب تحقيق التوافق للنفس » ان يعالج هكذا اداء ، داء الصهيونية والامبريالية بحيث يحقق بهذا العلاج علاج النفس العربية التي ابتلاها العدو الخسيس بعدم التوافق ..

والسياسية والفكرية ، ويعد بهم عن التعلق بالأماني والاهوام والاعتماد على الغير ، كما يناهز بهم عن اليأس والتحلل والرغبة في الخروج من المازق على حساب الكرامة والتاريخ والعرض والحاضر والمستقبل جميعا !

والاساس الخامس ، هو الاعتماد على المنطق الانساني ، الذي يقنع أي انسان في أي مكان . ومن هنا يجب ترك المبالغات التورمه ، والمعنويات الصاخبة ، على ان يحل محل ذلك كله اتزان عقلي ، وروح انساني ، ومنطق عصري ، يشد عقل المتلقي ويهب قلبه ويكسبنا آخر الامر بتأييده ، مهما يكن لون هذا المتلقي او جنسه ، او مكانه من خريطة العالم ..

والاساس السادس ، هو اتجوح الى النفاؤل اواعي ، والسى الامل امتزن بحيث يتجنب ادبنا المناضل اليأس والسلبية ، لما فيهما من منافاة لروح النضال ، وبحيث يناهز ادبنا كذلك عن النفاؤل الساذج ، الذي لا يبنى على اساس من وضوح الرؤية ولا يقوم على ركيزة من المعرفة الحقيقية بالابعد المختلفة لكل شيء يمسه المعركة .. ومن هنا كان على ادبنا في معركته ضد الصهيونية والامبريالية ان يتجنب كل ما يلقي ظلال اليأس على النفوس ، ومن باب اولي عليه ان يترفع عن نظم اتخدود ، وشق الجيوب ، وتحفيز الذات او لمن الماضي ، وتقيه من الحاضر والاشترابة في المستقبل !! وليس معنى ذلك الضحك في موطن البكاء أو المدح في مواقف القبح ، او تسمية الهزيمة باسم الانتصار ، ولكن معناه التصبير عن كل شيء بما يستحقه ولكن دون فقدان روح الامل اواعي ان الذي يبحث عن نور فجر القس في أحلك ظلمات الامس واليوم !

وبعد هذه الاسس التي اراها ضرورية لادبنا العربي في صراعه ضد الصهيونية والامبريالية ، ارى ان الحديث لا يتم الا بما يكمل هذه الاستراتيجية الادبية المطلوبة والذي يكمل هذه الاستراتيجية الادبية هو ان نتوجه بهذا الادب الى الداخل والى الخارج معا ، بحيث لا يفصر هذا الادب العربي النضالي على المجال الداخلي وحده .. وهذا يفرضنا ان نختار دائما من نتاجنا الادبي ما يمكن ان نترجمه الى اللغات الحية ، وان نوصله بطريقه او باخرى الى انقاري والاجنبي ، وبخاصة في البلاد التي نحتاج ان نكسب فيها انصارا نقضيتنا .. ومن الممكن ان تقوم بهذه المهمة « المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، التابعة لجامعة الدول العربية » باعتبارها المنظمة الاقرب الى ايدان الادبي ، مع صفتها العربية الشاملة التي تضع على ابحاثها مسؤولية عربية فومية مشتركة تلك المسؤولية .. وفي هذه المناسبة ، ارى ان من الممكن تنوع الاساليب التي يصل بها الادب العربي المناضل الى المتلقي الاجنبي . فمن الممكن تسجيل اشعار على اسطوانات بعد ترجمتها ترجمة ممتازة ، وادائها بأصوات مختارة .. ومن الممكن ترجمة مجموعات من القصص القصيرة ، ومختارات من الروايات ، وطبعها وتسويقها عن طريق بعض دور التوزيع المحايدة ، بعد اغرائها بالربح الوفير ، الذي لا مانع - في رأبي - من ان يكون مغريا بالاسهام الحقيقي والتحمس لنشر مثل هذه القصص والروايات ، ثم من الممكن ان تترجم بعض المسرحيات وتهيا لها فرص العرض في بعض المسارح الكبرى في اوربا واميركا وغيرها ، ولا يصح ان نبخل بأية نفقات تبذل في سبيل توصيل هذا الادب المسرحي النضالي العربي المسهم في قضية انعرب ضد الصهيونية والامبريالية .. على انه اذا تعذر الاخذ بهذا كله فلا أقل من تنشيط مراكزنا الثقافية في الخارج ومكاتب الجامعة ، وسفارات البلاد العربية ، وما نشترك فيه من معارض ومؤتمرات وندوات وحلقات في مختلف بلاد العالم ، لا مانع من تنشيط كل هذه الاجهزة لكي نسهم بطريق واضح دقيق ودائم

غير ملب لمتطلبات العصر .. ان النار اذا شبت في قرية ، فالعمل المطلوب من كل شاهد للحادث ان يسهم في اطفاء الحريق . وليس من الحرية في شيء ان يعتزل ابناء القرية في ركن قصي والنار تاكل قريته .. ان ما تواجهه الامة العربية الآن ربما كان افظع مما تواجهه تلك القرية التي تحيط بها النيران ويتهددها الدمار .. ولذا كان الحديث في وجوب اتجاه الادب الى مواقع النضال ضد هذا الخطر ، حديثا بديهيا لا يحتاج الى ان نقيم عليه أي دليل او ان نتلمس له المبررات ، الا اذا كانت انديهيات نحتاج منا الى هذا الجهد الضائع!

ولكن كيف يمكن ان نعيد من اتجاه الادب هذه الوجهة الصالحة ؟ هل مجرد خوضه معارك النضال ضد الصهيونية والامبريالية هو المطلوب مهما كانت طريقته في هذا العراك النضالي ؟ .. في الحقيقة لا بد من ترشيد يمكن معه تلاعب العربي المناضل ان يؤدي دوره على اتم وجه واحسنه ، حتى لا يخفق في معركته ، او يسقط في الميدان صريع انتماس وحده ، دون الاخذ بأسباب النصر .. لا بد للادب في صراعه ضد الصهيونية والامبريالية من اسس يعتمد عليها ، ومن عدد يأخذ بها ، ومن خطط يتحرك بمقتضاها ، او بتعبير عصري ملائم « لا بد من استراتيجية ادبية «صحيحة» » .. فما هي تلك الاسس ، او العدد ؟ او ما هو التخطيط السليم للادب العربي في تلك المرحلة ؟ وما ان الذي يحقق تلك الاستراتيجية الادبية الصحيحة ؟

لا شك في ان الاساس الاول هو المعرفة الصحيحة بالعدو بجانيه ، الجانب الصهيوني والجانب الامبريالي ، فلا بد من ثقافة كافية للاديب العربي تبصره بالحجم الحقيقي للعدو ، وبكل مخططاته واهدافه ووسائله واساليبه ، كل هذا حتى يتعامل الاديب العربي في صراعه ضد هذا العدو على بيته وبصيرة ، وحتى لا يتورط في اخطاء تهوي بنتائج اتي مهازي الاخفاق ، فاي جهل بالصهيونية تاريخها وواقعها وخطتها واهدافها ووسائلها ، واي تغافل او غفلة عن الامبريالية وحقيقتها وأطماعها وحياتها ومؤسساتها ومراكزها وغاياتها ، يورط الاديب المتصدي تصراع الصهيونية والامبريالية في اخفاق مضحك ويجعل عمله - مهما كان مخلصا - نوعا من « الدون كيشوية » ومحاربة طواحين الهواء !

والاساس الثاني هو الاقتدار الفني الادبي الصحيح . وذلك بان يكون كل ما ينتج من ادب نضالي ادبا حقيقيا ، مستوفيا اشراط الادب في كل نوع من انواعه بحيث يكون الشعر حقيقيا ، بل عاليا فنيا في مستواه الشعري ، وبحيث تكون القصة قصة حقيقية ، بل رفيعة المستوى في المجال القصصي ، وبحيث تكون مسرحية مسرحية فعلا ، بل عظيمة القيمة في الميدان المسرحي ، وهكذا .. وذلك لكي يتحقق الاتر المطلوب من العمل الادبي ويؤدي وظيفته النضالية عن طريق احترامه والتأثر به والاقتناع بما يريد هذا العمل ان يقول .. وبغير ذلك يفقد انعمل احترامه ، وتضيع قيمته ، ولا يكون له تأثير ، او يكون له تأثير عكسي ، بما يجلب من سخط وسخرية وازدراء !

والاساس الثالث ، التشبث بمبدأ الرفض ، بان يرفض هذا الادب الوجود الصهيوني كله ولا يستجيب لاية مصالحه او معايشة معه تحت أي شعار ، كما يرفض السيطرة الامبريالية ، ولا يخضع لضغوطها ولا ينخدع بحيلها ، ولا يطمئن للتعامل معها في أي صورة لان هدفها الاول هو الاخضاع وانقراض والاحتواء والابتلاع آخر الامر ..

والاساس الرابع ، هو التشبث بروح الاصرار ، بان يصر هذا الادب على النصر في هذا الصراع ضد الصهيونية والامبريالية ، ويهيم الناس لهذا النصر ، ويحملهم على الاخذ بأسبابه الحضارية

واشاعة الرفض وتأكيد التصمود ، وشحن الامل ، والافتراب بالجماهير من فجر آنصر ... وخلال ذلك كله ايضا يكون الفن الادبي العالي بكل اشكاله الشعرية والقصصية والمسرحية ، وبكل أسسه الفنية وروحه الانسانية ومعالجته الصحيحة ، ومن هنا يكون المنطلق الى العالم الخارجي حيث تكون الترجمة والنشر وانتوصيل الصحيح الى المتلقي غير العربي ...

وهكذا لن ينفلق ادبنا بهذه الندوة فيصير موضوعا واحدا ، وانما سينداح وينسع ليتناول كل التجارب والمواقف والاحاسيس والانفعالات ، كما انه سيسهل في كل القوالب والاشكال والصور ، وسيكون كادب أية أمة راقية تعرف معنى الادب واسلوب الفن . ولكنه فقط سوف يتلون بطابع أرحلة ولون الفترة وروح العصر ، حتى يرى فيه غيرنا حقيقة واقعا ، وحتى يرى فيه ابتناؤنا صورة حاضرنسا وانعكاس احداثه علينا . وحتى نستطيع قبل ذلك وبعد ذلك ان نوظف هذا الادب بقيمته الفخمة وقوته الهائلة في أهم ما يشغل حياتنا الحاضرة ويمس تاريخنا ، ويهدد مستقبلنا الآتي ، وهو « صراعنا ضد الصهيونية والامبريالية » فان لم يكن هذا كان الادب لونا من اللهب الذي لا يلبق في ساعات أجد ، او نوعا من الترف اندي لا يطلب عندما تلح الحاجة على الضرورات ... ومن حسن احتظ ان معظم ادبنا العربي يتجه تلقائيا الى تلك التوجه الحيوية الصحيحة ، وهي وجهه النضال ... وأن كان في كثير من نتاجه يحتاج الى ترشيد ، حتى يتجه وجهته وقد تسلب بما يبلغه غايته ... وبعض تلك الاسلحة هو ما حاول هذا المقال ان يبصر به . وارجو ان يكون قد اصاب .

احمد هيكل

القاهرة

صدر حديثا

في زمن القهر والفضب

المجموعة الشعرية الجديدة

لحبيب صادق

منشورات دار العودة

في توصيل ادبنا العربي النضالي الى المتلقي الاجنبي ، وعن طريق هذا الادب نكسب كل يوم مزيدا من الاصحاف ، ونحظى بمؤيدين عديدين ، لا شك انهم يمارسون باستهوار تزايداً في ضغط الرأي العام العالمي لما فيه صالحنا ونجاح صراعنا ضد اعدائنا الصهيونيين والامبرياليين . كل هذا ضمنا بلاضافة الى توجه الادب اساسا الى الداخل ، حيث يبصر العربي بقضيته عن طريق الفن ، ويشحن دائما عزيمته ويقوي ارادته ، ويجدد نسيج نفسه ، ويحول بينه وبين الياس او التردد او التبرم او عدم الاستمرار في النضال والافتراب من هاوية الاستسلام الذي فيه النهاية لا قدر الله !

بعد ذلك كله هناك كلمة نحتاج الى شيء من الايضاح ، وهي تتعلق بالتفسير الحيفي لمصاح الامبريالية . فانعرف ان معنى هذا المصطلح هو الاستعمار الجديد ، والمعروف ايضا انه ينصب اساسا على تلك الدول الاستعمارية الغربية التي عرفت تاريخيا بالاستعمار القديم ثم غيرت جلدتها اخيرا ، وعملت على السيطرة بطريق آخر هو طريق الاحتكارات والاحلاب ومراكز القوى والقواعد ، وما الى ذلك . وما دامت المسألة في الاستعمار الجديد - او الامبريالية - مسألة سيطرة وضغط ومحاولة كسب لتدول الكبرى على حساب دولة او دول صغرى ، فانا ارى ان اصطلاح الامبريالية لا ينبغي ان يقصر على دول بعينها ، وارى ايضا ان كل دولة كبرى تميل الى الضغط والافادة من دولة صغرى هي دولة فيها امبريالية وان تسمت بأي اسم آخر . فليكن مصطلح الامبريالية اذن معادلا للقهر والسيطرة والضغط وطلب مراكز نفوذ ، وليكن صراعنا ضد الامبريالية موجها لكل من يحاول ان يسيطر علينا او ان يضغط على واقفنا ، او ان يستغل ظروفنا او ان يطلب مراكز نفوذ منا . اتنا نعادي الصهيونية ومن يعاونونها في المقام الاول ، وصراعنا ضدهم هو صراعنا من اجل الحياة والكرامة . ثم اتنا مستعدون في الوقت نفسه لان نعادي وندخل في صراع - مهما كلفنا - ضد من ياخذ نفس الطريق الذي سلكه من عاونوا الصهيونية ومكنوها من طعننا وسلب ارضنا . اتنا على استعداد لان نعادي كل من يسيء الينا ويضغط علينا ويحاول اية سيطرة مستغلا ظروفنا ، حتى ولو لم يقف علنا مع الصهيونية ، ولو لم يسلك اسما في عداد الامبريالية فصراعنا لا يهتم بالاسماء ، وانما يهتم بالافعال ، وصراعنا لا ياخذ بالشعارات ، وانما ياخذ بالتصرفات ، وهو يحسن تقدير الحسنيات والسيئات !

بقيت كلمة ، او بقي سؤال : هل معنى كل ما تقدم ان يكون كل نتاجنا الادبي في كل نوع من انواعه ، وفي كل شكل من اشكاله ، حديثا عن انصهونية والامبريالية - بهذا المفهوم الموسع والواقصي للامبريالية - بحيث لا نجد فصيدة ولا قصة ولا رواية ولا مقالة ولا مسرحية الا في موضوع واحد هو الصهيونية والامبريالية ؟ الجواب بطبيعة الحال : لا !! فاللقصود من كل ما تقدم ان يكون هذا الواقع النضالي الذي تخوضه امتنا العربية منعكسا في ادبنا العربي ، نتيجة لتجهيد الاديب نفسه ، او - على الاقل - لاستشعاره واقع امته ، بحيث نجد صورة تهذا الاستشعار - بطريقة او باخرى - في كل ما ينتج من ادب . ومن هنا ليس بلانم - بل ربما تيس بمطلوب - ان يكون كل عمل ادبي نضا فسي موضوع واحد هو الصهيونية والامبريالية ، بل اللانم ان يلتحم الادب بالواقع العربي ، وان يهدمه ، وان يفسره ، وان ينقده ، وان يعبر عنه ، وان يخلق التوافق النفسي فيه ، كل ذلك وقضية صراع العرب ضد الصهيونية والامبريالية هي القضية التي تلقي ظلالها هنا وهناك ، وتتسرب عناصرها هنا وهناك ، وتلمح ابعادها وآثارها هنا وهناك . وخلال ذلك كله يكون بث الاصرار